باقة ورد حزينة في عرس جيفارا الكبير

الكلام فيه لا يفي بالمطلوب الشعر عنه يعجز عن التعبير .

الرواية حول حياته ، لا يمكن فصلها عن تاريخ وطنه وشعبه ، وتاريخ وطنه وشعبه اسطورة وشعلة وحزمة ضوء ، وراية نضال كبيرة حملها منذ ان دنس الاعداء ارض الوطن .

فمن يكون ؟

وماذا عمل حتى وصل الى هذا الحد من التقدير وامتزج تاريخه بتاريخ شعبه ؟

وقد يسال البعض عن عمره ، وكيف امتزج بعمر الوطن !. ولكن الاجابة المجردة لا يمكن ان ترضي المتسائل ان كانت لا تحوي سجلا للمآثر الكبيرة التي سجلها من اجل الوطن وحرية الوطن .

عندما استشهد جمع كل مآثره في لوحة واحدة ، وسطر كل اعماله على راية كبيرة ، كتب عليها اسمه وعنوانه . فكان الاسم « جيفارا » والعنوان « ثائر » ضد الاضطهاد والاستغلال والاستعباد الذي يتعرض له شعبه . والشعار نشيدا من اجل ان تستمر الثورة وتطرز الارض بازهار الربيع ، ويختفي من فوقها كل لون من الوان الاضطهاد .

ومع هذه المعاني التي سطرها استشهاده الا انه تحول الى عرس والى موكب احتفال كبير .

لماذا ؟! لانه اعطى كل شيء من اجل الوطن ، ولم يدخر شيئا لذاته او لعائلته . ولهذا كان فقده صحيحا مؤثرا ومؤلما وحزينا ، لكنه درس كبير وتعاليم جديدة سطرها للجماهير التي تناضل من اجل التحرير واستلام الرسالة لمواصلة المسيرة .

فهو اذا عاش وقدم درسا وباستشهاده قدم درسا وذكره وحياته وتاريخ نضاله سيبقى درسا ومآثرة وتجربة لكل الشعب .

لهذا تحول موكبه الى عرس وحالة مخاض جديدة سيولد منها المئات وستتعزز فيها ارادة القتال ، التي جسدها جيفارا بعمله ونضاله . وستختزن الجماهير في ضميرها كل التعاليم التي سطرتها سواعد جيفارا ورفاقه لتعيد ممارستها في النضال القادم . ومع انني حاولت ان لا اكون عاطفيا من الحدث ، الا انني سقطت فيه .

لماذا ، لان راية جيفارا التي حملتها غزة خمس سنوات ، دون ان يستطيع العدو ، ان ينكسها او « يخردقها » بالرصاص ، تعرضت باستشهاده لهزة ولكن العزاء الكبير لنا ولكل محبي الحرية هو في انتقالها الى سواعد اخرى ، ممن تعلمت نفس الدروس وغرفت من نفس المعين الذي استقى منه جيفارا . بل وتعلمت على يده . وترى هذه السواعد ان راية النضال هذه المرة يجب ان ترتفع ساريتها عاليا وان تخفق بعنف ، لا فوق غزة ، وانما في جميع ارجاء فلسطين ، مهما وضع العدو حول غزة من اسلاك ومهما حاصر ومهما اتخذ من اجراءات .

بعد ان تتم الجماهير حفلة زفاف جيفارا في عرسه الكبير .

ومن خارج الوطن ، تسللت في الليل ، لابحث عن مآثر الرجال واساطيرهم في غزة علني استطيع تسجيل شيئا ما عنها ليس لانها اصبحت اسطورة للنضال ، ولكن ربما تسمح لي الظروف لاشارك في عرسها الكبير ولو بباقة زهر اجمعها من ربيع الارض التي احبها جيفارا ، وانتقيها من كل الحقول والوانها من جميع

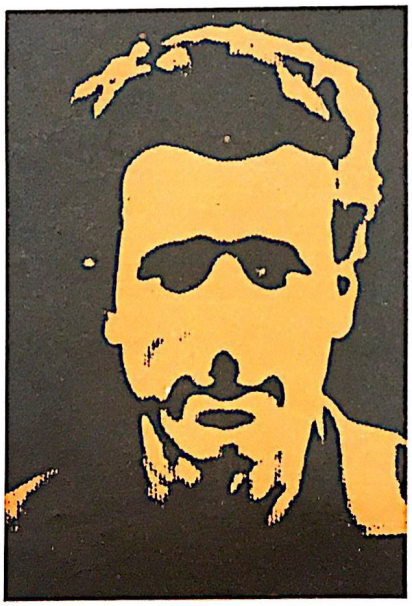

الازهار حتى تصبح وشاحا يليق بمقام عرسها ومسيرتها الظافرة . الا انني عجزت ان اوفي هذا الدين ، لان مقامها كبير وعرسها عظيم والوشاح لها بهذه المناسبة لا بد ان يجمع من كل ما طرزته الارض من زهر .. وقد لا يفي بالغرض .

لان العروس « غزة » وغزة تعريفها نضال صامد ومتطور وطويل، ورصاص يعزف لحن التحرير والخلود .. والعرس لجيفارا ، والعمصي ، والحايك . هؤلاء الرجال الذين اذا ذكروا لا بد ان يسطر الى جانب اسمائهم بطولات واعمال ومواقف ، يتسع بها الوطن الصغير وتكبر راية النضال .

ومثل هؤلاء الرجال قليلون ، لانهم يتواجدون في مرحلة يصعب فيها ظهور الرجال، وينذر فيها الرجال.

ولهذا فان عرسهم لا بد ان يكون كبيرا وهاما ، لانه بداية تاريخ .

قليلون ، لانهم ولدوا من احشاء مرحلة اليأس وبطون الظلام . فاوقدوا الشموع ، فاستدلت الجماهير بداية الطريق ، فسارت خلفهم .

قليلون ، لان اعمالهم وافكارهم اتسعت لمسافات اوسع واكبر مما حدده التاريخ ، او سطره القلم ، فاصبح عمرهم ونضالهم مترابط ومتداخل مع نضال عموم الشعب. بل وفي كثير من الاحيان يصعب التمييز بين اعمال هؤلاء الرجال والشعب ككل .

خاصة وان اعمالهم كانت جزءاً من طموح الجماهير وانعكاساتها .

وتوفر هذا الشرط اخرج اعمالهم من اطار البطولة الفردية ووضعها في موكب المسيرة الطويلة للشعب .

وعندها زادت عظمتهم ودورهم في حركة التاريخ، فاصبحوا جزءا من الشعب وملكا للشعب .

وجيفارا واحد من هؤلاء الرجال الذين عرفتهم الجماهير في ليالي غزة الملأى بالبطولة والجراح ، الليالي التي تحول الصمت والهدوء فيها الى شيء مكروه ومخيف للجماهير ، وصوت الرصاص والقنابل قيثارة تعزف لحن الحياة والحرية .

لان الرصاص كان لهم الملجأ والدفء الذي يحملهم الى ارض البرتقال الحزين ، ليرتموا فيها ويمسحوا عنها بقايا الندى وغبار السنين .

انا ايضا عندما اتذكر لياليها اتوه بذكراها . فاصداؤها ، تذكرني بحب عتيق وتعب ليل طويل ومع انها كانت ترعبني في بعض الاحيان ، وكنت اخشاها الا انني كنت احبها بقدر ما كنت اخشاها .

لكنني لا اخشى الرحيل اليها رغم كل شيء ، لانها اسطورة شعبي وقدسية نضالي .

ورغم انها فقدت جيفارا وفقئت عيون الاطفال فيها الا انها ستزهر رغم كل شيء وستولد من جديد .

وقد حاولت ان اختفي بين صخورها وبياراتها لالتقي بها عندما تعود ، ولكن يبدو ان المراكب ابحرت في صقيع الليل ، ولن تعود في هذه الايام .

ولكن اتراني اغادر سواحلها نهائيا !؟

بالتأكيد لا .

فالمراكب بعد حين ستعود وستضطرب الامواج وينشط العمل على السواحل ، وهناك نبدأ العمل من جديد ■■

ابو أياد